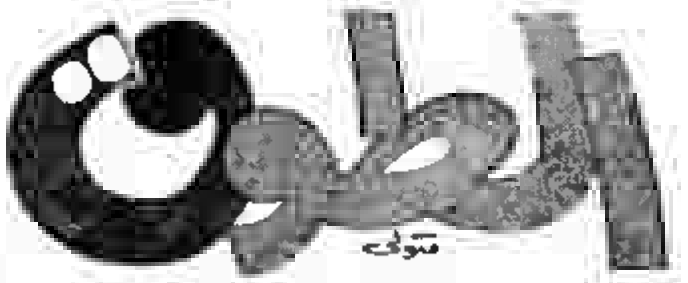

بقلم : احمد السيد عوضين

نحن فى شهر رمضان ، وهو شهر ـ كما يقال ـ يحب الاكل ! وقد عودتنى زوجتى الا يأتى المغرب الا والمائدة حافلة بالوان الطعام من اعداد يديها الكريمتين ٠٠ وكنت فى صبيحة يوم الجمعة الماضى ما ولت مسترخيا فى السرير عندما دخلت على ، وقد رسمت على ثغرها بسمة ـ اعرف معناها تماما ـ فبادرتها قائلا :

ـ ايوه ٠٠ يا ستى ٠٠ يا صباح الخير ٠٠ فيه ايه ؟

ـ صباح النور على عيونك يا أبو محمود ٠٠ امت لسه نايم يا روحى ! ٠٠ قوم ٠٠ دى الساعة بقت تسعة !

ثم توقفت عن الحديث ، ومدت يدها فازاحت عنى الغطاء وهى تتابع قولها :

ـ الله ! ٠٠ امت موش عارف ان أنبوبة البوتجاز خلصت ؟

ـ طيب ٠٠ ما تطلبى واحدة غيرها !

ـ ما طلبت يا روحى ٠٠ طلبتها من بدرى ٠٠ وقالوا لى : هتيجى ورى النهاردة ٠٠ يوم الجمعة الخاية ان شاء الله ٠

ـ موش مهم ٠٠ استعملى بواجير الجاز ٠٠

ـ بواجير الجاز ؟ ! ٠

وازدادت ابتسامتها اشراقا وهى تقول

ـ ما امت عارف يا روحى ان البواجير كلها عايزه تصليح ٠٠ واو بعت الست تصلحهم موش راجعة النهاردة ٠٠

وتوقفت عن الحديث لتركنى اسألها

ـ هيه ٠٠ والمطلوب منى ايه ٠٠ ! أروح أنا اصلحهم ؟

ـ اللى تشوفه يا روحى ! ٠ أحسن الست تسيبك فيهم عشان العجمى السمكرى ؟

فدهشت لقولها ٠٠ وتساءلت لفورى

ـ العجمى ؟ ! عجمى مين يا ست ؟

ـ الله ! ٠ العجمى ٠٠ السمكرى ٠٠ ايه ! نسيته ؟

ـ لا ٠٠ ما نسيتوش ٠٠

قلت ذلك ، وانا ارنو اليها ، وأتامل وجهها الذى مازال يحتفظ بكثير من معالم جماله ، فشعرت ـ وربما لأول مرة منذ زمن بعيد ـ باحاسيس تجيش فى صدرى ، ويضطرب لها فؤادى ٠٠ أحاسيس قد تعتبر غريبة على رجل مثلى

في منتصف العقد الخامس من عمره ، وأب لخمسة أولاد وبنات ..!

غير أن زوجي ـ أوالست أم محمود ـ لم تفارقني طويلا ايام بتلك الاحاسيس اذ ما لبثت أن ضحكت وهي تقول :

ـ ايه ـ مش هتقوم ؟ والا موش عايز تاكل كفاية النهاردة ؟

ـ اراي .. لا .. أبدا .. أنا قايم اهه ..

ونهضت في تثاقل .. وبعد فترة كنت عند السمكري .. اقف «على يديه» حتى ينتهي من اصلاح «البواجره» ..!

وفي دكان السمكري ـ سمكري القاهرة الذي لم أكن أعرف اسمه ـ تذكرت .. تذكرت ذلك اليوم الذي نادت علي أمي في صباحه وطلبت مني أن آخذ «الباجور» واذهب به الى العجمي السكري ، واقول له انه « مكتوم » ، و « يهب » ، ويلزمه نفخ ، و«تسليك» .. ورغم أنني كنت أحب الذهاب الى دكان العجمي، لما في ذلك من متعة كبيرة بصفير مثلي ، فانني سارعت أقول في خبث « لا .. موش رايح » وكنت أعرف انه لا يوجد عندنا غير هذا « الباجور » ، ولا بد من اصلاحه حتى يمكن اعداد طعام الغداء ، والا حدث مالا تحمد عقباه . لأن أبي كان على سفر ، يعود منه بعد الظهر بقليل ، ولا بد من اعداد « لقمة هنية » تكون في انتظاره عند وصوله بالسلامة .. وكانت تلك فرصة نادرة الهمني عقل الصغير بضرورة انتهازها .. ولذلك فعندما قلت « لأ» لم تسارع أمي الى « القشه » ـ كذابها معي ـ ولم ترتفع صوتها بي ، ولعني ووصفني بانني « متصوف الرقمة » وغير فالح .. لم تفعل شيئا من ذلك ، لانها كانت في حاجة خدماتي .. بل على العكس من ذلك ضحكت لي ، وربتت على ، وراحت ترجوني في صوت رقيق « يا الله يا حبيبي .. خد الواجور صلحه عشان نجهز الغدا لابوك » ولم تفلح هذه الرقة ، بل زادتني عنادا ، فما كان من أمي الا أن لجأت للسلاح الاخير ، فقالت « طيب روح ، وابقى خد لك قرش » فقلت « لا .. هاتي الاول » وزيادة منها في ترضيتي ، مدت يدها في صدرها ، وبعدني القرش .. وكان ذلك هو قصدي من كل تلك المحاورة .. فما ان احسست بالقرش في يدي حتى سارعت فخطفت « الباجور » وانطلقت أعدو به الى دكان العجمي ، وصوت أمي يلاحقني « خليه يصلحه ، ويسلكه ، واوعى تعيب .. أنا مستنياك عشان عدا ابوك » .

وفي لمح البصر كنت عند العجمي ، فالقيت اليه « بالباجور » واخبرته بالمطلوب ، وقلت له « يا الله يا عجمي شغل مفاحمك » ، غير أن العجمي لم يحقق طلبي بسهولة ، فهي يده «شغلة» يريد أن «يخلصها» أولا .. ولذلك راح يقول لي « روح انت وانا ها اجيبه .. أنا ها اسيك فيه بعد الكور اللي في ايدي على طول » ، ولم « يدخل » على هذا الكلام ، لانني « فاهم » العجمي ، وفاهم « حركاته » ، ولذلك سارعت فخطفت الكور من يده ، والقيت اليه « بالباجور » ، فلم يجد بدا من أن يترك ما بيده ، ويشتغل فيه ـ وأمره لله ـ ؟

ووقفت أرقبه ، وهو يتفحصه في دقة «وعلى مهل» ، محاولا أن يعرف سبب العطل ، وجعل يدق هنا تارة ، ويحبط هناك تارة أخرى ، ثم يضع اصبعه الاسود الغليظ ، على «الفوسة» ويعطي للباجور « نفسا » ، ثم يرفع اصبعه عنها،

فيعلو الخبر في حيط رفيع طويل ... ؟

وكنت أتابعه في لهفة، وشبوة، منتظرا في لهفة تلك اللحظة الحلوة التي يتم فيها نزع « الكوشنة » وتركيبها على « منفاخ الرجل » ، فهذه العملية لطيفة ، ويبلغ لطفها منتهاه عندما يطلب مني العجمي أن أتولى عنه النفخ ، فأنحني بجسدي الصغير، على منفاخ الرجل ، وأرتفع به، ثم أنزل أقصى جهدي للضغط عليه الى أسفل ... وحينما أطلع في ذلك يكون العرق قد تصبب غزيرا من جبيني ، وتكون نشوتي — في ذات الوقت — قد بلغت حدا كبيرا ...

وفي انتظار تلك اللحظة الحلوة راح العجمي « يرغي » معي ويسألني

— أبوك جاي من مصر امتى ؟

— النهاردة الصهر .

— وهوه مسافر ليه ؟

— يزور أهل البيت .

— واسم طابجين ايه النهاردة ؟

— دابجين

— واختك هتجور امتى ؟

— في الايراد .

وكان من الممكن أن يمضي هذا « الرغي » الى غير نهاية، لولا أن اقبلت وردة علينا تعثر في شقاوة ، وعندما وصلت الى باب الدكان سألت العجمي

— عملت الفانوس يا عجمي ؟

— أيوه .

— طيب هاته .

— تعالى خدي حديه .

— خدي ايه ؟ احنا عايزينه النهاردة ... الوقتي اهه ... أبوي واخواتي سارحين النهادة بالليل، علشان هيباتوا ع الساقية ، وامي قايله لي ماتجيش من غيره .

— سلمي لي على أمك وقولي لها العجمي يقول لك معاصر من عندي الاتنين ...

واستهواني حديث وردة الصغيرة ، فقلت لها

— أبوك واخواتك هيباتوا ع الساقية؟

— أيوه .

— ويفضلوا هناك طول الليل ؟

— أيوه .

— وانت مروحي معاهم ؟

— امي ماتترضاش .

ورأيا العجمي قد انهمكنا في حديث شغلنا عنه ، فوضع « الباجور » بجانبنا وشغل نفسه « بالكور » الذي لم يكن ينقصه سوى اللحام ، فلما تنبهت الى ذلك ، وطلبت منه اصلاح « الباجور » أولا ، قال لي « طيب ... حالا ... بس أما المكوة تسخن » ، ورغم انني كنت أعرف انه لا لزوم « للمكوة » بالمرة في تسليك « الباجور» فان وردة لم تترك « الباجور » اليه ثانية ، فقد جذبتني من كتفي ، و « أخذتني على جنب » ، وواجهتني باسمة ، وقالت لي هامسة

— شايف الطوق اللي هناك ده ؟

وأشارت الى ذلك الطوق الحديدي الذي ينتصب شامخا في أحد أرجاء الدكان ، ويا له من طوق ! انني ما من مرة مررت فيها بدكان العجمي الا ووقفت طويلا أرقب ذلك الطوق ، وأتأمله مشدوها ، متمنيا من أعماق أن يكون لي ألعب به ... وهو لا ينقصه سوى يد من السلك ليصبح من الممكن الجري به ... يجري أمامي ، وأنا من خلفه الاحقه ... فلا هو يسبقني ولا أنا ألحق به ... ولكن كيف السبيل الى هذا الطوق ؟ ...

وقالت وردة

— شايفه ؟

— أيوه ... دا انا شايفه من زمان ...

ونسى أحمد .. لكن بس اراى والعجمى عينه رى عين الصقر ؟

ـ مالكش دعوه انت .

ـ صحيح والنبى ؟

ـ صحيح .. بس على شرط انا نلعب به سوى .

ـ طبعا .. نلعب به سوى ، وهوه انا احب العب مع حد تانى غيرك !

ـ طيب .. انت بقى عليك تقف قدام العجمى وتشاغله بالكلام .. ولما تلاقينى بعدت عن الدكان سيب العجمى والحقنى هتلاقينى مستنياك ورا الجامع .

ـ ومعاى الطوق .. بس عليك تجيب سلك ..

وسارعت فتركت وردة وواجهت العجمى ، فوجدته منهمكا فى لحم «كور» تان ، فما كان منى الا ان طلبت منه ان يخلص « الباجور » اولا وقبل اى شىء آخر ، فلما ايقنت انه قد ينس تماما ، واوشك أن يلقى ما بيده و « يمسك » فى الباجور .. قلت له :

ـ طيب .. عان حتة سلك ، وانا استنى عليك لما تخلص الكور .

ومد العجمى يده وراء ظهره ، وجذب سلكا طويلا ألقاه الى وهو يقول :

ـ خد يا سيدى السلك اهه .. واسكت بقى عنى ..

وحينما احدت السلك ، كانت وردة قد انسلت خارجة من الدكان دون ان يشعر بها احد ، فسارعت اليها ـ خلف الجامع ـ ومعى السلك الطويل ، فوجدتها فى انتظارى ، ومعها الطوق الحديدى ؛ وكانت فرحتى بهذا الطوق كبيرة جدا ، فمنذ اليوم سيصبح لى طوق ، ولن أنظر فى حسد الى اولئك الذين لديهم أطواق يعدون بها زهو وافتخار ، بل سأجرى معهم ، أسابقهم واسبقهم ، ولن يتفوق على أحد منهم ، والفضل فى ذلك كله لوردة .. واعترافا منى بفضلها اعطيتها القرش الذى معى والذى أخذته من أمى « بعد طلوع الروح » ، وطلبت منها أن تذهب ، وتشترى به « كرملة » وتعود الى لنتقاسمها نحن الاثنين معا .. وعادت وردة بعد قليل ومعها «الكرملة» ـ عشر حبات ـ فجلسنا فى الساحة الكبيرة الواقعة خلف الجامع ورحنا نمص « الكرملة » معا بعد أن اقتسمناها بالتساوى ، وفى ذات الوقت أخذنا نصلح السلك معا ، ونصنع منه يدا للطوق ..

وكنت فى ذلك الوقت لم اتجاوز العاشرة من عمرى ، ولكنى كنت اسبق سنى بكثير ، وكان كل من يعرفنى يقول عنى أننى ولد ناضج ، وانى ـ اسم الله حارسنى ـ رجل من يومى .. أما وردة فكانت فى مثل سنى هى الاخرى ـ او اقل بعامين ـ غير انها كانت تمتاز عن كل بنات القرية بشعرها الاصفر ، وعينيها الخضراوين ، وبشرتها البيضاء، وكنا كثيرا ما نلعب معا « استغماية » أو « حاورينى يا طيطه » أو « يا عم ياجمال» .. ويشاركها فى هذه الالعاب أولاد آخرون يعادلوننا فى العمر ، لكننا كنا نبزهم جميعا فى الشقاوة ..

وكنا ـ انا ووردة ـ لا نفترق مطلقا فى اللعب ، فنحن الاثنين دائما « مع بعض » لا يحلو لنا الا اللعب معا .. بل اننى كان من عادتى الا أقبل مطلقا على اللعب فى اليوم الذى تغيب فيه وردة ، بل كنت أنصرف عن ساحة اللعب ، وليست بى أدنى رغبة فيه . فقد كنت أحب « اللعب » مع وردة جدا

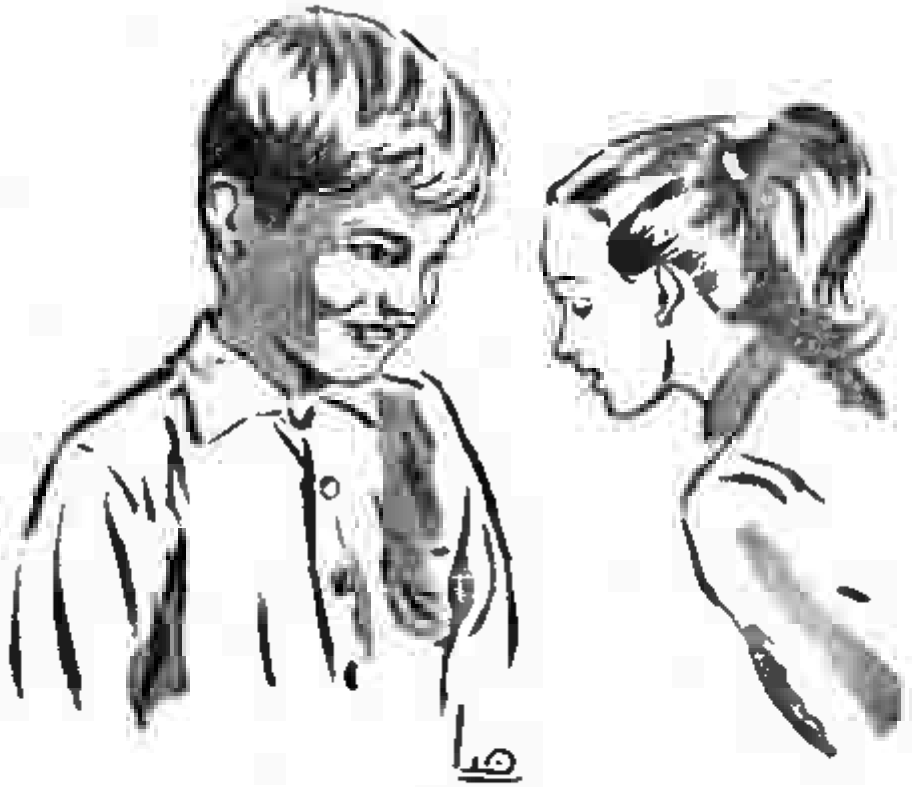

ـ واذا ما حرمت وراءها لأمسك بها اراها تحاورني و « تروع » مني ـ ولا تستسلم لي الا بعد عناء كبير ، ورغم ذلك فلم اكن احاول مطلقا أن اعتدي عليها بالضرب حينما أمسك بها ـ كما تقضي بذلك أصول اللعبة ـ كما أنهاني الأخرى لم تكن تحاول أن « تروع » مني بعدما امسك بها ، بل كنا نعدو حينما الى جنب مستغرقين في الضحك ، شاعرين بالسرور ، وأحد يدي تمتد ـ دون سبب مفهوم ـ الى شعرها الحريري تتحسسه في رفق ، ثم تهبط الى خدها الوردي الجميل تلمسه في حنان ، ثم تستقر على كتفها ، وتظل كذلك طوال الطريق ...!

وقد جلسنا في ذلك اليوم متجاورين واتهمسكنا معا في صنع يد للطوق ، ونهضنا بعد ما اتممنا صنعها لنجرب الطوق ، فاشترطت علي وردة الا أمضي بالطوق بعيدا ، ورغم أن التجربة نجحت ودار الطوق بسرعة ، واندفع الى الامام ، واحسست بالف دافع ودافع يستحثني الى ان اعدو بالطوق أجوب شوارع القرية ـ بلدنا ـ في تيه وافتخار ... رغم ذلك فقد خضعت لوردة و « سمعت كلامها » الذي اتبعته بابتسامة كنت أعرف مغزاها تماما ... وكذلك اكتفيت بأن دربت بالطوق حيث كنا عددا من الفوارق ووردة وراءني ، تدور معي ، وهي تضحك

في سرور .. واعطيتها الطوق ـ بعد ذلك ـ لتساعد نصيبها هي الاخرى ، ودرت معهـا دورتين .. وفي الدورة الثالثة استطاعت وردة ، بقالب من الطوب ، ، فوقعت على الارض ، وخرج اصبع قدمها .. وعندما رايت اصبعها يترف دما اخرعت ، وسارعت فاحنيت عليها واجلستها وامسكت بالاصبع المجروح ورحت امسح الدم عنه .. ووضعت فوق الجرح قليلا من التراب لاكتم الدم ، وظللت اضغط على الاصبع براحة يدى ، ولم ارفعهـا الا بعد أن اطمأننت الى أن الدم قد توقف عن النزف .. غير ان وردة ألفت بعد ذلك ـ ومن تلقاء نفسها ـ براسها على كتفى .. وهي تقول لى : «انا دايخه يا محمد» وسارعت انحسس حبيبتها ، واريت على جبينها ، ووجدتنى ـ ولا ادرى لمـاذا ـ امسك براسها ، واريحها على ركبتى ، واقول لهـا : « نامى كده شويه » .. ونامت وردة ، ورفعت الى عينيهـا الخضراوين ، وتعرق شعرها الحريرى على ركبتى ، ورمقتنى ، باسمة فسألتها

ـ انت عينيك حمرة ليه يا وردة ؟
ـ حلقة رنا !
ـ وشعرك أصفر ليه ؟
ـ قسمتى .
ـ انت بتحبى تلعبى معاى ؟
ـ قوى .
ـ وبتحبى تلعبى مع الاولاد التانيين ؟
ـ لا . ماباحبهومش .
ـ طيب .. انتى تعالى نلعب هنا كل يوم لوحدنا بالطوق .
ـ نلعب هنا لوحدنا ؟
ـ ايوه .. موش أحسن ؟
ـ ايوه أحسن .. خلاص ما عدتش ها اروح الحرش تانى .. كل يوم ها اجى هنا .. نلعب احنا الاتنين بس .. وماعدتش ها العب مع حد تانى .. بس اوعى تبقى توقعى زى المرة دى .

ـ وانه يعنى .. لما تقعى .. اداوقعت ها اشيلك .. وأنيمك .. ماتخافيش أبدا وانت معاى ..

وراحت يدى تزيل ما علق بحلبابها من تراب .. وارتفعت يدى ـ بعد ذلك ومن تلقاء نفسها أيضا ـ الى خدها ترت عليه .. والى شعرها تتحسسه .. وعدت أسألها :

ـ خلاص يا وردة .. كل يوم هتيجى هنا نلعب سوى ..؟

ـ خلاص .. يا محمد .
ـ بس ما تقوليش لحد تانى .
ـ حاضر موش ها اقول لحد تانى .
ـ وتفضل كده لحد امتى ؟
ـ لحد ما نكبر ونبقى ....
ـ ونبقى ايه يا وردة ؟

ورفت على ثغرها ابتسامة مشرقة .. وهي تجيب في صوت هامس :
ـ نبقى عريس وعروسة .

وكان الظلام قد حل .. وصوت الشيخ ابراهيم يرتفع بآذان المغرب .. فنهضنا .. وقد نسينا تماما أن « الباجور » لم يتم اصلاحه ، وبالتالى لم يعد العداء لوالدى ، وان الفانوس لم يتته صنعه ، ولذلك فسوف يبيت والد وردة واخوتها ع الساقية في الظلام ..

نسينا ذلك كله .. ولم نذكر الا هذا الطوق الحديدى الذى طوقنا به منذ ذلك اليوم .. ولم نتخلص من اسره حتى اليوم .. لا انا ولا وردة !